تمهيدات الحوادث

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

بدأ التمهيد لبنى أمية فى الشام قبل الإسلام بجيلين متعاقبين، وكانت الشام قبل ذلك سوقًا عامة لقريش، تأتيها قوافل الصيف بتجارة الحجاز فى حراسة الرؤساء من بيت مناف على الأكثر، وأظهرهم فى الجيل الذى سبق الدعوة النبوية هاشم بن عبد مناف.

ولم يكن رحجان هاشم بالرئاسة والثروة حائلا بين الأمويين وغشيان الشام للتجارة والإقامة بين المدن والبادية فيها، بل كان هذا الرجحان - فيما اتفقت عليه الأخبار - سببًا لهجرة أمية من مكة وإقامته بالشام عشر سنين، إذ تنافر هاشم وأمية وتنافسا على الرئاسة، واحتكمنا إلى الكهان كعادتهم على أن يكون للغالب إجلاء المغلوب عن مكة عشر سنين، فقضى المحكومون لهاشم على أمية، وخرج أمية إلى الشام فاختارها مقامًا له خلال هذه السنين، وربما كان ضيقة بالزعامة المعقودة لهاشم فى مكة من دواعى الهجرة قبل الحكم عليه فى قضية المنافرة المشهورة، ,هى قضية قد تصح لتفصيلاتها أو لا تصح إلا بجزء منها، ولكن هجرة أمية إلى الشام لم تكن مما اختلف عليه المختلفون.

ولما مات هاشم شغل أبناؤه بالرئاسة الدينية إلى جوار الكعبة، وآل اللواء إلى بنى أمية، وهو عمل ينوط بصاحبه حراسة القوافل إلى الشام وإليها، إذ لم يكن من حاجة قريش فى الجيل السابق للإسلام عقد اللواء لجيش يغزو القبائل أو يدفع غزوتها لمكة، وإنما كان العمل الأكبر لصاحب اللواء حراسة طريق التجارة بين مكة والشام على الأكثر، وبين مكة واليمن فى قليل من الأوقات. وكان عملا يحتاج فى الواقع إلى جيش صغير وقائد يجمل لواءه، لأن القافلة التى تخرج للتجارة تجمع أموال قريش وتسير بها المئات من الإبل، ولا ينتظم سيرها بغير قيادة تتولى تنظيم المخافر وتوزيع المؤنة والتعرف إلى رؤساء القبائل التى تقيم على الطريق أو تقيم على مقربة من أسواق الشام فى البادية، فهى عمل متصل لا ينتهى بانتهاء رحلة القافلة ولا تزال له روابطه وعلاقاته بين صاحب اللواء وأعوانه وبين ذوى الشأن فى مراحل الطريق وفى مناب المقام.

ومن المشهور المتواتر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان معروف المكانة بين رؤساء الدولة البيزنطية على حدود بلاد العرب كما كان معروف المكانة بين الوجوه من قبائل البادية، وخلعت عليه الدولة البيزنطية لقبًا من ألقاب الرئاسة ليسفر بينها وبين قومه ويعينها فى خلافها مع العرب الغساسنة بالشام، وكانوا يجنحون أحيانًا إلى جانب فارس فى حربها لبيزنطة. ويرى البيزنطيون أنهم لا يستغنون عن قوة من العرب لمقاومة هذا الخطر من البادية، ولو بتهديد الغساسنة وتشكيكهم فيمن يجاورهم أو يعاملهم من العرب الحجازيين.

وقد كان أمية على شبه محالفة بينهم وبين بنى كلب أقوى القبائل ببادية الشام وأشدها خطرًا عل الغساسنة، ومنها من تنصر منافسة للغساسنة فى حظوة الدولة مع ارتقابهم للفرص بين الدولتين وبين القبائل العربية، وقد عرفنا بعد الإسلام ثلاثة من كبار الأمويين أصهروا إلى بنى كلب فى عصر واحد، وهم سعيد بن العاص وإلى الكوفة والخليفة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان، ولا تكون هذه المصاهرات أول العهد بالصلة بين الفريقين، فهى بقية لما تقدمها من الصلات.

ومن المشهور أيضًا أن أبا سفيان كان على صلة بولاة الأمر من البيزنطيين، وكان يلقى هرقل وأمراء بيته فى رحلاته، ويعول عليه هؤلاء فيما يعنيهم من أحوال العرب وأخبارهم، فقبل أنهم سألوه عن النبى عليه السلام عند مبعثه، وأن السائل جعل يستنبئه عن صفاته عليه السلام على مسمع من قوم حجازيين فى المجلس، ويحذره أن يكذب فيكذبه من سمع كلامه من قومه. قال أبو سفيان: وعلمت أنهم لا يكذبوننى إن كذبت ولكننى صدقت الصفة ضمنًا بمروءتى أن أقول ما يعلم السامعون أنه نبأ مكذوب.

قال المقريزى "إنه لما فتحت بالشام كورة إلا وجد فيها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتًا".

وكان النبى صلوات الله عليه يتحرى فى اختيار الولاة أن يندبهم للولاية

حيث يتيسر لهم العمل بموافقة الرعية، فاختار عمر بن سعيد بن العاص واليًا لتيماء وخيبر وتبوك وفدك، وكلها على طريق التجارة الأموية، وسار أبو بكر على هذه السنة فاختار يزيد بن أبى سفيان قائدًا لجيش من جيوش الحملة على الشام وولاة بعض أقاليمها بقية حياته، وكانت وفاته فى عهد الفاروق فجرى على هذه السنة وعهد بالولاية إلى أخيه معاوية حيث بقى إلى ما بعد خلافة الفاروق، وكان يعمل برئاسة أخيه قبل موته ويحمل اللواء بين يديه.

ومن بنى أمية من كاد يصرح بالطمع فى الملك بعد رسول الله على عهد الصديق. إذ كان من أبناء عمرو بن سعيد بن العاص خلف على الولاية التى ولاها إياه النبى صلوات الله عليه، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أنفوا أن يعملوا له وقالوا: "نحن أبناء بنى أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدًا".

ولا يقول هذا القول إلا من يطلب الرئاسة لنفسه ولا يقر بالرئاسة لغير ذى نبوة أو رسالة إلهية، وينظر إلى الخلافة نظرة دنيوية لا تفاضل فيها بصفة من صفات الدين وسابقة من سوابق الهداية.

وكان الفاروق قد ولى معاوية ولاية من الشام فضم إليه عثمان سائر الشام وألحق به أقاليمها من الجزيرة إلى شواطئ بحر الروم، فلما قتل عثمان كان قد مضى لمعاوية فى ولاية الشام عشرون سنة، لم يبق فيها من ينازعه أو يعصمه، ولم يكن من عمالها وحكامها المرؤوسين له أحد من غير صنائعه وأشياعه والمستقرين فى كنفه، لأنه حرص يف ولايته على استبقاء من يواليه وإقصاء من يشغب عليه، وجعل همه الأكبر أن يخرج أهل الفتنة من الشام ولا يبالى بعد ذلك ما صنعوا فى سائر الولايات، فتفرقوا كلهم بين الكوفة ومصر والحجاز.

كان عثمان يسمع الأقاويل عن ولاية الشام ويتلقى الشطايات من يطلبون نمنه عزل ولاته وأولهم معاوية فيتعذر لهؤلاء الشاكين بعذره المعهود ويقول لهم أنه إنما ولى على الشام من ارتضاه قبله عمر بن الخطاب. وقال

ذلك مرة لعلى بن أبى طالب فقال له على: نعم. ولكن معاوية كان أطوع لعمر من غلامه يرفأ، وصدق الإمام فيما قال.

فقد كان معاوية يصطنع الأبهة فى إمارته ويقتصد فيها جهده بعيداً عن أعين الفاروق، فإذا لامه الفاروق على شىء منها رآه بعينه اعتذر له بمقامه بين أعداء ألفوا الأبهة واتخذوها آية من آيات القوة والمنعة، وكان يؤدى حساب ولايته لعمر كلما سأله الحساب ويقنع منها برزقه من بيت المال ألف دينار فى العام، وأنفال مما يجمه من تجارة أهله أو مما وراء الحساب.

فلما بويع عثمان بالخلافة تركه فى مكانه وضم إليه سائر الشام كما تقدم، وطلب منه معاوية أن يرخص له فى زرع الأرض التى تركها أصحابها وهاجروا إلى بلاد الروم فأجابه إلى طلبه، ووضع معاتوية يديه على موارد من المال تقوم بأعباء دولة، ولم يكن يخشى عليها من الحساب ما كان يخشاه على عهد عمر بن الخطاب، وأوشكت الشام أن تقوم وحدها مملكة مستقلة يتولاها ملك مستقل فيما عدا الأوامر التى كانت تأتيه من المدينة بتحصين الثغور وإمداد الغزاة وتسيير الجيوش إلى الأطراف بقيادة الأعلام من الصحابة.

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الإسلامية قسمين، أحدهما ولا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة من الحجاز والعراق، وقد تدخل مصر فيها حينًا وتخرج منها أكثر الأحايين.

وتولى معاوية بلادًا لا ينازعه فيها منازع ولا يود أحد فيها أن تخرج من يديه وتؤول إلى غيره.

وتولى على بلادًا كلها نزاع من أمر الخلافة إلى أصغر الأمور، فنازعه الخلافة طلحة والزبير، وأحاط به رهط من المتزمتين المتفقهين يسألونه عن الكبيرة والصغيرة ويجتهدون اجتهادهم فى كل شأن من شؤون السياسة.

وهذا إلى الفارق بين وفرة المال من جانب وندرته من الجانب الآخر.

وهذا إلى فارق آخر أكبر وأعسر وأعضل على الحل والمحاولة، وهو

الفارق بين الملك والخلافة، وقد افترقت طريقاهما منذ سنين، وتم افتراقهما بعد أيام عثمان.

فكانت أعباء الخلافة كلها على على، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية مواتية له نحيطة به فيما يريد وفيما لا يريد.

كان الناس مع على ينظرون إلى سنة النبى وسنة الصديق والفاروق من بعده، وكان الناس مع معاوية ينظرون إلى هرقل وكسرى، ولا يسومونه أن يهكم كما حكم النبى أو كما حكم من بعده الخليفتان الأولان.

وكان لابد لعلى - كما قلنا فى عبقرية الإمام - من ملك أو خلافة ... "ولن يكون ملكًا بأدوان خليفة، ولا خليفة بأدوات ملك، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده. لأنه عصر ملك تهيأت له دواعيه الاجتماعية تهيأ له الرجل بخلائفه نياته ومعاوية أمثاله، ولم يكن معاوية زاهدًا فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه. فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه.

وهذه حالة لم تطرأ دفعة واحدة فى أيام النزاع بين على ومعاوية. بل ظهرت بوادرها فى أيام الصديق وازدادت ظهروا فى أيام الفاروق، وحدث كما أجملنا ذلك فى كتاب ذى النورين أن الصديق "اتخذ الحيطة للفتنة واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له فى الرأى وبين نجنبهم الفتنة وما زق الولاية، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة فى أمور تؤذن بما بعدها فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت: "ما لقيت منكم أيها المهاجرون .. رأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل، وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان".

وانقضى عهد الصديق ثم انقضى عهد الفاروق "والمجتمع الإسلامى مجتمعان: أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه، وأوشك عمر على قوته أن يحار فى تدبيره، وقال الشعبى أنه قضى

وأوشكت قريش أن تمله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها فى دنياها الجديدة".

وتتابعت السنون على أيام عثمان وهذان المجتمعان يلجان فى الافتراق حتى افترقا غاية افتراقهما فى النزاع بين على ومعاوية. فكان على يكبح تياراً جارفًا لا حيلة له فى السير معه ولا فى دفعه، وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاء بغير حيرة، ويركبه معه من لا يدافعه ولا يحار فيه.

وكأنما بقيت بقية من التيسير هنا والتعسير هناك، فجاءت حصة على حيث جاء الموالى من كل جنس يطلبون الحق الذى يطلبه كل مسلم ممن لا ينكر على أحد حقًا من الحقوق، وخلت الحصة الأخرى من هؤلاء الموالى وخصت للعرب يوم كان العرب وحدهم قوام الدولة فى دمشق بين القرشيين واليمانيين.

أحاط الموالى بالإمام حتى قال له بعض أنصاره من العرب: "لقد غلبتنا هذه الحمراء عليك" وسار الإمام فى العدل بينهم وبين العرب سيرة من يعلم أنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى.

أما فى الشام فقد كان معاوية لا يباليهم لأنهم قلة هناك لا يحسب لها حساب، ومرضاة العرب أولى من مرضاة الموالى فى دمشق حيث قامت الدولة الأموية، وحيث هان خطبهم بعد ذلك حتى قيل أنه هم بقتلهم والبطش بهم على غير عادته، وقال لهم غير مرة أنكم عجم وعلوج!

وما كان من قبيل المصادفات أن الدولة الأموية قامت فى دمشق وأن الدولة التى قوضتها - وهى دولة بنى العباس - قامت فى بغداد. فإن دمشق ما كانت لتصلح مقامًا للدولة بعد اتساعها للعرب والفرس والترك والديلم وموالى الأمم من كل قبيل.

وقد كانت العصبية العربية قوة للدولة الأموية فى نشأتها، وكان اختلاط الموالى ضعفًا للدولة القائمة فى الجزيرة، لأنهم اشتات متفرقون لم يكن منهم أحد يقبض على زمام من أزمتها.

ونجمت ناجمة الخوارج فلم تكن لهم جرثومة فى الشام ينجمون منها، ولكنهم أصبحوا شعبة جديدة من شعب الشقاق بين الموالى والشيعة من العرب وأصحاب التزمت والزهد من أدعياء الاجتهاد وأدعياء الحق فى محاسبة ولى الأمر على ما شرعه الكتاب.

ثم قتل على دون صاحبيه المقصودين بالقتل معه معاوية وابن العاص، فنتفع معاوية بعمله فى حياته كأنه أعفاه من جهاد منافسيه بالحجاز والعراق، وانتفع بعده بالشقاق بين الشيعة والخوارج والموالى والعرب فى رقعة الجزيرة، فإذا هم يضرب بعضهم بعضًا ويغلبهم جميعًا بأيديهم كلما تفرقوا وتقاتلوا، وما كان فى وسعهم أن يتفقوا أو يكفوا عن القتال.

وإن القدرة التى خلصت بها الخلافة لمعاوية بين هذه الحوادث لتوزن بميزانها الصادق إذا شاء المؤرخ أن يخالف بين الكفتين .. فماذا كان معاوية صانعًا لو أنه بويع بالخلافة فى المدينة ولم تكن له سابقة ولاية على الشام؟ وماذا كان صانعًا لو كان على الشام يومئذ منافس يسوسها على سنة الملك ويرتكن فيها إلى قواعد راسخة من عهد الفاروق وقواعد راسخة من قبل الإسلام؟

لقد كان على اليقين يفشل حيث فشل على ولا ينجح حيث نجح، لأنه لم يكن ليظفر بالبيعة من الملتزمتين ولا من المقتدين بسنة النبوة وسنة الصديق والفاروق.

***

ثم انفرد معاوية بالخلافة ولزمته تبعة الدفاع عن الدولة فى وجه أعدائها فوضع المؤرخون فى كفته هذه المأثرة غير ممحودة، ولا منظور فيها إلى التمهيدات التى من قبيل ما قدمناه أو تربى عليها.

ولا شك أن رأس الدولة الأموية قد عمل على حمايتها ولابد له من العمل على هذه الحماية، ولسنا نعنى هنا أنه حمى الدولة ليحمى ملكه ويحمى نفسه فهذا قد يدخل فى بيان النيات ولا يدخل فى بيان القدرة التى

أعانته على عمله، ولكننا نعنى أننا لا نزن هذه القدرة بميزانها الصحيح إلا إذا عرفنا ما اضطلعت به وكان لها يد فيه وعرفنا ما جرى فى مجراه بحكم الحوادث وليست فيه لها يد عاملة أو تدبير مقصود.

فالفتح الإسلامى قد ضعضع دولة الروم الشرقية وفت فى أعضادها وترك فيها رجال الدين والدنيا معًا يائسين من رجعة الشام إلى حوزتها مؤمنين بتأييد الله للعرب الفاتحين عقابًا للرعاة والرعية على خطاياهم وخطاياها.

وقد سمع هرقل صيحة الوعاظ بهذا النكير بأذنيه فى مؤتمر أنطاكية، وغادر سورية وهو يودعها ذلك الوداع الذى كاد الرواة أن يحفظوه بكلماته اللاتينية كما يحفظون كلمات سليمان الحكيم عن باطن الأباطيل.

فقبل أن يفارق الأرض السورية صاح كأنه ينشج بالبكاء: "الوداع يا سورية. الوداع الأخير".

Vale Syria et Ultimatum Vale

ورسخت هذه العقيدة فى قلوب خلفائه فلم تغن فيها وفرة العدة وكثرة الجند وأسلحة البر والبحر التى كانوا يجمعونها ولا تكاد تجتمع حتى تتفرق لأول صدمة أو تتفرق قبل اللقاء من أجل منام أو عيافة أوهام. وقد روى جيبون أن حفيد هرقل خنع للتسليم لأنه رأى فى المنام أنه فى سالونيكا وهى كلمة تجانسها كلمة باليونانية معناها "اعط النصر لغيرك!".

وفى تاريخ ميخائيل السورى "أن المنتقم الجبار أتى بأبناء إسماعيل فى الصحراء ليخرجوا الأمم من ربقة الروم".

وقد روى ابن الأثير من حوادث سنة خمس وعشرين هجرية "أن معاوية غزا الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التى بين أنطاكية وطرطوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة".

ولم ييأس العواهل الضعفاء من سورية وما جاورها من آسيا الصغرى بل يئسوا من القسطنطينية نفسها وهموا مرات بنقل العاصمة منها إلى صقلية،

وتركها العاهل فنستانز فعلا (سنة ٦٦٨ م) لقيم له عاصمة فى صقلية فأوشك أن يقيمها لولا أنه قتل فى سرقسطة!

واقترنت بهزيمة الروم فى سورية هزائم شتى وشواغل متفرقة أياستهم من الغلبة على الدولة الإسلامية، ومن هذه الشواغل حرب الشعوب السلافية ومحالفتهم للمسلمين فى بعض الوقائع بآسيا الصغرى، ومنها الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، ومنها انقسام الأسطول بين قيادتين أحدهما للعاصمة والأخرى للولايات المتفرقة.

وربما كان اسم الدولة الإسلامية فى إبان الفتح حماية لها تقوم فى ترويغ خصومها مقام العدد والحصون، ولا أدل على ذلك من سلامة هذه الدولة فى عهد معاوية الثانى الذى اعتزل الحكم ولزم داره كما جاء يف تاريخ الخلفاء للسيوطى "أربعين يومًا وقيل شهرين وقيل ثلاثة أشهر"

قال السيوطى: "ولم يخرج إلى الباب ولا فعل شيئًا من الأمور ولا صلى بالناس".

ولما خلع نفسه قال: "أيها الناس ضعفت عن أمركم فاختاروا من أحببتم، ثم احتضر وهو فى نحو العشرين فسألوه أن يستخلف أخاه خالدًا فقال: ما أصبت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها؟".

ولم يتفق المسلمون على خليفة بعد معاوية الثانى حتى قام عبد الملك بن مروان بالأمر سنة ثلاث وسبعين . . . أى بعد تسع سنين.

ودولة تسلم من بيزنطة تسع سنين وهى بغير خليفة متفق عليه لا يبلغ من خطر عدوها أن يحتاج الدفاع عنها إلى قدرة خارقة من ولى الأمر فيها، وقد سلمت من ذلك العدو سنين قبل ذلك بينْ مقتل عثمان ومقتل على، ولم يكن بين المقتلين يوم سلام واستقرار من الحجاز إلى الجزيرة إلى الشام إلى مصر وما يليها من إفريقية الإسلامية.

والثابت المعروف أن الدفاع عن الشام إنما استحصد وتوشد قبل استقلال

معـاوية بولايتها فى أيام عـثمان، وإن الدفاع الأكـبر عنها بعـد ذلك إنما كان يتولاه من قـبل الشرق ولاة الجزيرة، ومن قبل الغـرب ولاة مصر وإفريقـية، وعندهم الجند والسفن ولهم الصلة الدائمة بالحجاز يسـألون الخليفة المدد فيأمر من يشاء من الولاة أن يمدوهم به، ومنهم معاوية فى الشام.

وهذه الفترة فى تاريخ الدولة الإسلامية هى التى جعلت لها تلك المهابة التى آيأست بيزنطة من جدوى الهجوم عليها وصرفتها إلى غير هذه المجهة من حدودها، مع إدبار القوة وانقسام الأولياء والأعـوان وضياع الثقة بالنصر، بل باستحقاق النصر من الله.

***

وبعد . .

فالمحـصل من هذه الحوادث والتـمهيـدات أن المؤرخ الأمين مسـئول أن يحضرها جميعًا فى حسابه وإلا كان كلامه عن "قدرة" معاوية كلامًا جزافًا لا يؤخذ بـه فى تمييز أقـدار الرجال وخـصائص الطبـاع، ولا يفيـدنا شيـئًا فى التعريف بالوسائل التى مهد بها مـعاوية لنجاحه والوسائل التى تمهدت له قبل مولده، وقبل الإسلام.

وتتخلص قدرة معاوية فى خلائق مشعورة مترادفة أشهرها الدهاء والحلم وعلو الهمة أو الطموح.

وهذه الخلائق هى مـوضوع البحث فيـما يلى من الفصـول قبل الكلام على نشأته وعمله وموجز تاريخه وصفوة الرأى فيه.